Vol. 6 No. 2 (2019): 63-74

RJS Online Journal Research in Islamic Studies UNIVERSITI MALAYA

Received: 2019-01-10 **Accepted:** 2019-07-08 **Published:** 2019-08-30

خصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان والحضارة عند ابن عاشور من خلال التحرير والتنوير: (دراسة موضوعية)

The Characteristics of The Qur'anic Approach in Human and Civilization Building According to Ibn Achour in His Book Al-Tahrir Wa Tanwir: Thematic Study

Mohamed Amine Hocini[a*], Mustaffa Bin Abdullah[b], Fouad Bounama[c] & Mohamed Tahar Benabidi[d].

[a] Ph.D, Department of Al-Quran and Al-hadith, Academy of Islamic Studies, University of Malaya, Kuala Lumpur.

[b] Associate Professor (Ph.D), Department of Al-Quran and Al-hadith, Academy of Islamic Studies, University of Malaya, Kuala Lumpur.

[c] Associate Professor (Ph.D), Department of Al-hadith. Faculty of Islamic Sciences. Al Madinah International University, Kuala Lumpur.

[D] Ph.D Candidate, Department of Al-Quran and Al-hadith, Academy of Islamic Studies, University of Malaya, Kuala Lumpur

*** Corresponding author, email; amine-ha@hotmail.com**

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى إبراز خصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان والحضارة عند ابن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير. تتجلى مشكلة البحث في أن خصائص منهج القرآن في بناء الإنسان والحضارة كما وردت في تفسير التحرير والتنوير تحتاج إلى استكشاف، وذلك باستقرائها وتحديدها وإحصائها وشرحها. تتمثل أهمية البحث في كونه يتناول موضوع خصائص منهج القرآن في بناء الإنسان والحضارة في التحرير والتنوير، إذ إن معرفة خصائص هذا المنهج تساهم بشكل فعال في بناء الإنسان وحضارته وتأهيله للنهوض بالأمانة الكبرى المنوطة به في هذا الوجود. اعتمد الباحث في بحثه هذا المنهج الاستقرائي وذلك لتتبع وجمع النصوص التي تناولت خصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان والحضارة في تفسير التحرير والتنوير، كما اعتمد المنهج التحليلي الوصفي بغرض تحليل النصوص المجموعة وملاحظة سياقها واستنباط خصائص المنهج القرآني وحصرها وتنظيمها. ومن أهم النتائج التي توصل إليها البحث: أن خصائص المنهج القرآني عند ابن عاشور خمسة: الفطرة، الدوام والعموم، الشمول والتكامل، السماحة واليسر، والتدرج، وقد صرّح ابن عاشور أن هذه الخصائص تتمحور بشكل أساسي على الفطرة الإنسانية وترجع إليها.

الكلمات الدلالية: خصائص، المنهج القرآني، التحرير والتنوير، ابن عاشور.

Abstract

This research aims to clarify the characteristics of the Qur'anic approach in human and civilization building according to Ibn Achour in his Book *Al-Tahrir wa Al-Tanwir*. The problem statement of this research is that the characteristics of the Qur'anic approach as mentioned in *Al-Tahrir wa Al-Tanwir* need to be identified, highlighted and analyzed. This study is significant because it identifies and uncovers the characteristics of the Qur'anic approach in human and civilization building according to the Ibn Achour in his *Tafsīr*, which is essential to qualify the human being to fulfill the duties he is assigned with. This research used the inductive and the analytical approaches. The findings of the research show that the characteristics of the Qur'anic approach in human and civilization building according to Ibn Achour in his Book *Al-Tahrir wa Al-Tanwir* consist of five characteristics, namely: *al-Fiṭra* (Human instinct), *al-Dawām* (permanency, continuity), *wa al-umūm* (validity for all times and places), *al-Shumūl* (comprehensiveness), *wa al-takāmul* (integration), *al-Taysīr* (softness, facilitation) and finally *al-Tadarruj* (gradation). These characteristics are fundamentally based on *Fiṭra* (Human instinct).

Keywords: Characteristics, Qur'anic Approach, Al-Tahrir wa Al-Tanwir, Ibn Achour

---

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة السلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فمعلوم عند كلّ أحد أن الله –عزّ وجلّ– أنزل القرآن الكريم لبناء الإنسان وتأهيله لبناء حضارته، وقد نجح المنهج القرآني الذي وضعه القرآن الكريم لتحقيق تلك الغاية، ويمكن ملاحظة ذلك في النجاح الذي حققه في فترات متعددة من الزمن أبرزها جيل الصحابة –رضي الله عنهم–، ويرجع نجاح هذا المنهج في بناء الإنسان أولا ثم تأهيله لبناء الحضارة ثانيا إلى خصائص يتميّز بها عن غيره من المناهج تتمثل أساسا في حسن تعامله مع الإنسان ومعرفة مداخله. ومن المفسرين الذين لهم عناية بدراسة المنهج القرآني في بناء الإنسان والحضارة ابن عاشور وذلك في كتابه "التحرير والتنوير"، حيث فصّل الحديث بشكل جيد عن هذا المنهج على العموم، وخصائصه ومزاياه على وجه الخصوص، ويمكن ملاحظة ذلك في مواضع كثيرة في تفسيره، غير أنّ خصائص المنهج القرآني هذه وردت في ثنايا تفسيره متفرّقة ومتناثرة، وهنا تكمن مشكلة البحث إذ إنّ خصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان والحضارة تحتاج إلى استكشاف وإبراز كما وردت في تفسير التحرير والتنوير، وذلك من خلال استنباطها وحصرها وشرح كلّ خاصية، وهذا ما يريد الباحث أن يدرسه. ومن هنا جاءت أهمية هذا البحث، إذ يهدف إلى بيان خصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان والحضارة عند ابن عاشور من خلال كتابه "التحرير والتنوير" وقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى مقدمة وخمسة مباحث وخاتمة، وهي كما يلي:

المقدمة: وفيها توطئة للموضوع.

المبحث الأول: خاصية الفطرة.

المبحث الثاني: خاصية الدوام والعموم.

المبحث الثالث: خاصية الشمول والتكامل.

المبحث الرابع: خاصية السماحة واليسر.

المبحث الخامس: خاصية التدرج.

الخاتمة: وفيها نتائج البحث والتوصيات.

المبحث الأول: خاصية الفطرة: ذكر ابن عاشور أنّ الإسلام دين قائم على أساس الفطرة ومعنى ذلك أنه يجري على ما فطر الله –عزَّ وجلَّ– عليه البشر من جهة العقل وأنَّ شرائعه وأحكامه تناسب استعداداتهم الفكرية وتسايرها، وأنّ "الفطرة تهتدي إلى أصوله وتطمئن إلى شرائعه"، فلذلك وصفه الله –تعالى– بأنَّه الفطرة فقال: { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [(1)]، فهو يراعيها ويساوقها، فلذلك كان من مهام الأنبياء –عليهم السلام– ومنهم نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم– "إصلاح الفطرة إصلاحا جزئيا" [(2)]، وجميع أصول الإسلام وما يتعلق به منبثقة من ينبوع الفطرة، ومن ذلك المنهج القرآني في بناء الإنسان والحضارة[(3)].

ويشير ابن عاشور إلى الحكمة من جعل الإسلام –ومنه المنهج القرآني في البناء– مسايرا للفطرة ومساوقا لها فيقول: "ثم إن الحكمة في أن جعل الله تعالى دين الإسلام الفطرة، أنه لما أراد جعله دينا عاما لسائر البشر، دائما إلى انقضاء هذا العالم، جعله مساوقا للفطرة المتقررة في نفوس البشر، لتكون الجامعة العامة للبشر مشتقة من الوصف العظيم المشترك بينهم وهو وصف الفطرة، لأنَّ شعوب البشر –لا يمكن جمعهم جمعا عمليا غير وهمي في جامعة واحدة ما لم يكن عمودها وقاعدتها شيئا مرتكزا في سائر النفوس، وقدرا مشتركا بينهم لا يتخلف ولا يختلف. فذلك ضمان لانتفاء الغواية عن أتباعه وأمته، بحيث لو انحرفوا عنه انحرافا قليلا لا يلبثون أن يراجعوه ويهتدوا إلى إقامته"[(4)]، فيُفهم من كلامه أنّ دوام الشريعة الإسلامية وعمومها يستلزم كونها مسايرة للفطرة، وإن لم تكن كذلك لتعذر دوامها وعمومها. ونفس الأمر ينطبق على المنهج القرآني للبناء، فلو لم يكن مراعى فيه الفطرة –المشتركة بين جميع البشر– لاستلزم أن يكون متعلقا بعصر ومكان وأناس معينين، فبمجرد انقضاء هذا العصر وذهاب هؤلاء النَّاس ومفارقته ذلك المكان لصار غير فاعلٍ ومؤثرٍ، ولاستلزم إيجاد منهج آخر للبناء، وهذا خلاف ما سبق بيانه في قضية البناء من أنّ هذا القرآن جاء ليبني جميع الناس وعلى مرِّ العصور والأزمنة وفي جميع الأماكن.

ومن هنا يتبين أنّ المنهج القرآني في البناء لصيق بالفطرة وملازم لها لا يفارقها في عملية بناء الإنسان والحضارة والعمران. وبالنظر إلى خصائص المنهج القرآني ومميزاته يلاحظ أنها ذات صلة وثيقة وعلاقة وطيدة بالفطرة، بل هي نابعة منها، تتجلى تلك الخصائص في: خاصية الدوام والعموم، وخاصية التدرج، وخاصية التيسير، وخاصية الشمول والتكامل.

---

(1) الروم، آية: 30.

(2) ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، (بيروت – لبنان: مؤسسة التاريخ العربي، 1420هـ، 2000م)، ج2، ص284، 285.

(3) المرجع السابق، ج1، ص366. ج3، ص50. ج21، ص48. ابن عاشور، محمد الطاهر، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، تحقيق: د. محمد الطاهر الميساوي، (الأردن: دار النفائس، ط1، 1421هـ، 2001م)، ص39، 40، ص 42.

(4) ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص 40.

المبحث الثاني: خاصية العموم والدوام: من خصائص المنهج القرآني في البناء أنّه صالح لكل الأزمنة والعصور والحقب، ولكل الأحوال والأجناس والبشر والأقطار، وهذا يعني أنه قادر على البناء مهما اختلفت الأعصار والأجناس، ومن أدلة خاصية العموم والدوام في المنهج القرآني قوله –تعالى–: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً} [5]، وجاء في الحديث التصريح بذكر هذه الخاصية فقد قال النبيُّ –صلى الله عليه وسلَّم–: " أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي.. فذكر " وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً"[6] [7].

ويذكر ابن عاشور أنّ السبب الرئيس الذي به صار المنهج القرآني متميزا بالعموم والدوام والخلود، وقادرا على البناء في جميع الأزمنة ولكافة الناس هو كونه مراعيا لأساس الفطرة الإنسانية وقائما عليها، فلولا مراعاته لِما جُبل عليه البشر لما استقام أن يكون عامّاً ودائماً[8]. ويزيد هذا الأمرَ تفصيلا فيذكر أنه لا يتأتى للمنهج القرآني أن يكون قادرا على البناء في جميع العصور ولكافة الناس إذ ليس بالأمر الهين بناء أمم "مختلفة الحضارات والآراء والأخلاق والعادات في عصور مختلفة ما لم يكن مبنى أصوله على أساس واحد يجمعها، وهو أساس الفطرة"[9]، فمن هذا المنطلق يتبين أنّ المنهج القرآني لم يوضع لطائفة معينة ولا لمنطقة خاصَّة ولا لفترة محددة، وإنما يشمل جميع النوع البشري وعلى مرِّ العصور[10].

وقد نبَّه ابن عاشور –في هذا السياق– إلى أنّ خطاب العرب بالقرآن لا يقتضي أنه قاصر عليهم أو أنه يراعي خاصة أحوالهم، فهذا ينافي العموم والدوام الذين يتميز بها القرآن الكريم، مع عدم نفي أنّ بناءهم كان من مقاصد القرآن الكريم ابتداء لتهيئتهم لحمل الشريعة وبثّها، لكنَّ هذا لا يعني أنَّ المنهج القرآني في البناء مقتصر عليهم فقط[11]. ومن أبرز مظاهر كون المنهج القرآني صالحا لكل زمان ومكان تركيز القرآن الكريم على أصول الأحكام والتقليل من التفريع فيها وترك ذلك للمستنبطين، وهذا حتى تبقى الأحكام صالحة لكل زمان ومكان[12].

المبحث الثالث: خاصية الشمول والتكامل: ومن خصائص المنهج القرآني أنه شامل ومتكامل، فهو يجمع بين إصلاح نفوس الأفراد بتطهيرها وتزكيتها، في حين أنه لا يغفل إصلاح نظام حياتهم، من خلال التشريع، فهو يزاوج بينهما في عملية البناء ولا

---

(5) الأعراف، آية: 158.

(6) البخاري، محمّد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، (اليمامة – بيروت: دار ابن كثير. ط3، 1407هـ، 1987م)، كتاب التّيمميم، ج1، ص128، ر328.

(7) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج1، ص366. ج3، ص52.

(8) المرجع السابق، ج3، ص50، 51. قطب، سيّد، **في ظلال القرآن**، (القاهرة: دار الشّروق، ط40، 1434هـ،2013م). ج1، ص13، 14.

(9) ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص 45.

(10) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج4، ص163.

(11) المرجع السابق، مرجع سابق، ج1، ص37.

(12) المرجع السابق، ج1، ص38. ج3، ص52.

يفصل إحداهما عن الأخرى، فكلاهما مهمٌّ في نظره، قال –تعالى–: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [13][14]، فالمنهج القرآني يُعنى ببناء الإنسان من جميع جوانبه: العقدي والروحي والخلقي والعلمي، فردا وجماعة، كما يُعنى بوضع الشرائع وأصول النظام الإسلامي التي تضمن ضبط نظام حياته[15].

ومما يؤكد اتِّصاف المنهج القرآني في البناء بالشمول والتكامل أنّ المقصد الأعلى والأصلي للقرآن الكريم هو إصلاح شؤون النّاس كلّها، وهذا يقتضي أن يكون شاملا لجميع جوانب الإنسان وجميع مستوياته في تكامل وتناسق، وهو ما يتجلى في المقاصد الأصلية التي ذكرها ابن عاشور والتي تدل دلالة واضحة على اتصاف منهج القرآن الكريم في البناء بهذه الخاصية، فمن تلك المقاصد الجانب العقدي، والجانب الأخلاقي والسلوكي، ومجال التشريع وسياسة الأمة وحفظ نظامها[16]، فمن هنا يتبين شمول المنهج القرآني للإنسان من حيث هو فرد ومن حيث هو جماعة، كما يشمل توجيهه في هذه الحياة الدنيا، وإرشاده في الحياة الأخرى، وتتم هذه العملية في تكامل وتناسق تام من غير تفضيل لجانب على حسابِ آخر.

المبحث الرابع: خاصية السماحة واليسر: ومن أبرز خصائص المنهج القرآني في البناء خاصية التيسير والسماحة، فهو يتميز بأنَّه يبني الإنسان فردا وجماعة ويبلّغه إلى مصالحه في سماحة ويسر من دون حرج، وإن هاتين الخاصيتين –السماحة واليسر– تجعلان المنهج القرآني في البناء أكثر فعالية لكون النُّفوس تتلقاه بالقبول والاطمئنان، كما أن اتسام منهج القرآن في البناء باليسر والرفق والسماحة يجعله صالحا للبقاء والدوام، إذ إن امتثال الناس لهذا المنهج ودوامهم عليه يعتمد على مدى يسره وسماحته[17].

والنصوص الدَّالَّة على اتسام المنهج القرآني بخاصية السّماحة واليسر كثيرة جدا بلغت مبلغ القطع، منها، قوله –تعالى–: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}[18]، وقوله: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [19]، وقوله –تعالى– في سورة الحج: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}[20]، وقوله في سورة الأعراف في وصف النبي –صلى الله عليه وسلم–: {وَيَضَعُ

---

(13) النّحل، آية: 97.

(14) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج3، ص51، 52. ج5، ص31.

(15) المرجع السابق، ج1، ص37. الأشقر، عمر سليمان، **خصائص الشريعة الإسلامية**، (الكويت: مكتبة الفلاح، 1982). ص51. قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج1، ص 400، ج4، ص1919. القرضاوي، يوسف، **الخصائص العامة للإسلام**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1404هـ، 1983م)، ص108، 111. قطب، سيد، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، (القاهرة: دار الشّروق، 1997م). ص113، 114.

(16) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج1، ص37، 38.

(17) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج1، ص135. ج3، ص48، 53. ج2، ص598. ج21، ص50. ج28، ص13. ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص 51.

(18) البقرة، آية: 185.

(19) البقرة، آية: 286.

(20) الحج، آية: 78.

عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}[21]، والمقصود بوضع الإصر: "إبطال التكليف بالأعمال الشاقة"، وقال –تعالى–: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [22]، كما وردت أحاديث تدلُّ على هذا المعنى، منها قوله –صلى الله عليه وسلم–: "إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ هَذَا الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ"[23]، وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– دائما يأمر أصحابه بالتيسير، فقد قال لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري –رضي الله عنهما– حين أرسلهما إلى اليمن: "يَسِّرا وَلَا تُعَسِّرَا"[24] [25]، فجميع هذا الآيات –وغيرها كثير– تدل على أنّ السماحة والتيسير والرفق واللين كلُّها مرعية في المنهج القرآني في البناء، وأنّ الحرج والمشقة والإصر كلها مرفوعة[26].

ومما يؤكد خاصية التيسير في المنهج القرآني أنّ الغرض من تشريع التكليف هو العمل به والالتزام به بشكل دائم ومنتظم، فلذلك فإنَّه من المنطقي أن يكون في مقدور الناس واستطاعتهم، من حيث مراعاة قابليتهم وقدراتهم العقلية والجسمية[27]، ويذكر ابن عاشور أنّ خاصية السماحة والتيسير لم توجد في دين غير دين الإسلام، إذ كانت الشرائع السابقة تتصف بالشِّدَّة والمشقَّة، مثل ما جاء في التوراة حيث كانت تحرّم بعض الطيبات وتعاقب على بعض المعاصي بالقتل وغيرها من التكاليف التي يظهر فيها الحرج والإصر، الذي نُزِّهَتْ الشريعة الإسلامية عنه[28]. فمما سبق يتبين أنّ المنهج القرآني قائم على دعائم السماحة والرحمة وأسس الرفق والتيسير.

أمثلة على التيسير: الأمثلة على خاصية التيسير والسماحة في المنهج القرآني كثيرة، نذكر منها ما يلي:

أ– تشريع الرُّخَص: إن من القواعد الفقهية العامة قاعدة "المشقَّةُ تَجلب التَّيسير"، حيث إنه إذا وجدت المشقة فيحل حينئذ إتيان الرخصة، والرخص في الشرع كثيرة، منها الترخيص بالإفطار لصاحب العذر من مرضٍ أو سفرٍ تخفيفا عليه ورحمة به، قال –تعالى–: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ

---

[21] الأعراف، آية: 157.

[22] الأنبياء، آية: 107.

[23] النّسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن، **المجتبى من السنن**، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدّة، (حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ط2، 1406هـ، 1986م)، كتاب الإيمان وشرائعه، باب الدين يسر، ج8، ص121، ر5034. قال الشيخ الألباني: صحيح.

[24] البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الجهاد والسّير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه، ج3، ص1104، ر2873.

[25] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج2، 412. ج4، ص99. ج8، ص316. ج8، ص318. ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص 49، 50.

[26] إلا فيما لا يمكن قيام المصلحة إلا بها وهو قليل ونادر.

[27] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج2، ص598. ج3، 48. قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج2، ص632، 697، 698.

[28] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج8، ص317، 318.

الْعُسْرَ} [29] [30]، ومن الأمثلة على الرخصة الإذنُ للمضطر في أكل الميتة ورفع الحرج عنه في ذلك، قال –تعالى–: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [31] [32].

ب- نسخ بعض التكاليف: كما حصل في قيام الليل، حيث إنَّه لم يفرض على المسلمين مراعاةً لأحوالهم وتقديرا لظروفهم التي يعسر معها قيام اللّيل، فاقتضى ذلك التيسير والتخفيف، حيث قال –تعالى–: {عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} [33]، فقد جمعت هذه الآية أصول الأعذار: منها ما هو متعلق باختلال الصحة، وما هو متعلق بالسعي في طلب الرّزق، وما كان من القيام على شؤون الأمة ومصالحها[34].

ويشير ابن عاشور إلى أنّ من أبرز الأساليب التي يستعملها المنهج القرآني والتي تخدم التيسير أسلوبَ التعليل بيان الحِكَم والأسباب والمصالح من التشريعات والأحكام، وذلك بغرض رفع مشقة التكليف وتخفيفها والتلطُّف بالمسلمين وطمأنة نفوسهم وتأنيسها[35]، ومن أمثلة ذلك:

أ- قوله –تعالى– بعد فرضه الصيام: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [36]، حيث بين لهم بأسلوب ليّن أنّ فرض الصّيام عليهم حتَّى وإن بدا شاقّا وعسِيرا إلا أنّ فيه مراعاةً لمصالحِهم ما يؤكد إرادة الله –تعالى– اليسر بهم[37].

ب- قوله –تعالى– في الأمر بالقتال: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [38]، ففي هذه الآية تلطف وتعليل من الله –عزَّ وجلَّ– للنبيّ –صلَّى الله عليه وسلم– والمسلمين ببيان الحكمة من هذا التشريع تيسيرا وتخفيفا عليهم، فأرشدهم إلى أنّ العبرة في الأفعال والتروك النظر في الغايات والمقاصد والمصالح والمفاسد، وليس ملاءمة الطبع ومنافرته، فقد يكون الشيء محبوبا للإنسان وفيه ضرره وهلاكه، كما

---

[29] البقرة، آية: 185.

[30] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج2، ص173. 179، ص597.

[31] البقرة، آية: 173.

[32] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج2، 179. ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، مرجع سابق، ص 42، 44. القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، مرجع سابق، ص179. القرضاوي، يوسف، **مدخل لمعرفة الإسلام**، (القاهرة: مكتبة وهبة، 1422هـ، 2001م، ط3)، ص120. 126.

[33] المزّمّل، آية: 20.

[34] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج29، ص265- 267.

[35] المرجع السابق، ج2، ص304.

[36] البقرة، آية: 185.

[37] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج3، ص53. ج2، ص173.

[38] البقرة، آية: 216.

قد يكون مكروها له وفيه نفعه، غير أنّ معظم الناس يغفلون عن مراعاة الغايات والمآلات فلذلك نبههم وأرشدهم إلى اعتبار المصالح والمفاسد، وفي هذا طمأنة لأنفسهم[39].

ت- بعد أن شرّع الله -عزَّ وجلَّ- في أوائل سورة النساء أحكاما كثيرة وفيها إبطال واقتلاع لعادات وتصرفات ألفها الناس واعتادوها، وفي هذا مشقة عظيمة على النُّفوس، جاء التعليل الإلهي لبيان الحكمة من وراء هذه التشريعات التي فيها عنت ومشقَّة بأن فيها بيانا وهدى، فقال -تعالى-: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [40]، فالغرض من هذه الآية "استئناس المؤمنين واستنزال نفوسهم" إلى الاستجابة لتلك الأحكام والامتثال لها وتذكيرهم بأن الله -تعالى- يريد بهم الخير واليُسر لا العُسر، وتأكيدا لهذا المعنى بيَّن الله -عزَّ وجلَّ- مراعاته لضعف الإنسان فقال: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً} [41] [42].

المبحث الخامس: خاصية التدرج: من أبرز خصائص المنهج القرآني مراعاة التدرج في عملية البناء، وهو من عوائده، وذلك لأسباب عديدة أبرزها تهيئة النفوس لتكون أدعى لقبول البناء والتغيير ورسوخهما، وكذلك لتكون أدعى لترك ما ألفته من العادات والتقاليد خاصة تلك الراسخة فيها، كما أنه يعامل النّاس بالرحمة والرأفة إذ يحملهم على مصالحهم بالتدريج، إضافة إلى التعليم والترسيخ[43].

وتتجلى خاصية التدرُّج في المنهج القرآني في بناء الإنسان والحضارة في مواضع كثيرة، نذكر منها ما يلي:

أ- البدء ببناء العقيدة: من أبرز مظاهر التدرُّج في البناء الشروع بالعقيدة لأنها أساس كلّ بناء ، وعليها تقوم جوانب الإنسان الأخرى: الروحية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، يقول ابن عاشور في بيان ذلك: "وكان إصلاح الاعتقاد أهم ما ابتدأ به الإسلام، وأكثر ما تعرض له؛ وذلك لأن إصلاح الفكرة هو مبدأ كل إصلاح؛ ولأنه لا يرجى صلاح لقوم تلطخت عقولهم بالعقائد الضالة، وخسئت نفوسهم بآثار تلك العقائد المثيرة، خوفا من لا شيء، وطمعا في غير شيء. وإذا صلح الاعتقاد

---

(39) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج2، ص304، 305.

(40) النّساء، آية: 26.

(41) النّساء، آية: 26.

(42) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج4، ص95، 96، ص99. وقد ورد مثل هذا التعليل في سورة المائدة في قوله -تعالى-: {الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً}، ينظر: ج5، ص28. وفي قوله -تعالى-: {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ}. ج5، ص227. وفي مواضع أخرى، ج2، ص332، 333.

(43) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج2، ص165. ج4، ص38. ج5، ص31، ص196. قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج5، ص2562، 2563.

أمكن صلاح الباقي؛ لأن المرء إنسان بروحه لا بجسمه"[44]. فلما أخذت العقيدة حقَّها من البيان والإيضاح وذلك في المرحلة المكية، انتقل إلى بناء جوانب أخرى وركَّز عليها في المرحلة المدنية مثل تحريم الخمر والكثير من الأحكام الأخرى التي تناسب حالة الاستقرار التي يعيشها المسلمون في المدينة وانتظام أحوالهم وأمورهم[45].

ب– تحريم الخمر: يعتبر تحريم الخمر من أبرز وأشهر الأمثلة على تدرج المنهج القرآني في البناء، حيث إنّ تحريمها مرّ على مراحل عديدة وهي ثلاث، وذلك لأن الخمر كانت من أحب الأشياء إلى العرب وكانوا شديدي التعلق بها، وقد كان لتحريمها ومنعها وقع شديد على نفوسهم، بل لا يوجد شيءٌ شقّ عليهم تحريمه أكثر من الخمر، فلهذا كله سلك المنهج القرآني في تحريمها ثلاث مراحل، تسبقها مرحلة إباحة شربها وذلك في قوله –تعالى–: {وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً} [46]، أما مراحل التحريم فكانت كما يلي: المرحلة الأولى في سورة البقرة، حيث قال –تعالى–: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} [47]، حيث ورد فيها النهي لكنه غير جازم وغير صريح، وذلك بالتنبيه إلى ما فيها من منافع وآثام مع ترجيح كفة الآثام، إذ اعتادوا أن لا يذكروا إلا محاسنها، فاستجاب بعض الناس ممن كان على درجة كبيرة من التقوى، ثم تلتها المرحلة الثانية وذلك في قوله –تعالى–: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} [48]، فتمَّ تقليص أوقات الشرب حيث إن المسلمين صاروا يجتنبون شرب الخمر متى ظنُّوا بقاء السُّكر إلى وقت الصلاة، ثم جاءت المرحلة الأخيرة التي نهت عن شربها نهيا جازما وأمرت باجتنابها أمرا قاطعا، وذلك في قوله –تعالى–: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [49] [50].

وهناك أمثلةٌ أخرى على تدرّج المنهج القرآني في البناء ويتجلى ذلك في تشريع الأحكام التي يراد نسخها إلى الأثقل، إذ إن الفائدة منها تهيئة النفوس وإعدادها إلى قبول تلك الأحكام الجديدة، ومن أمثلة ذلك ما ورد في أحكام المواريث وأحكام الصَّوم حيث رخَّص في أول الأمر لمن له القدرة على أن يعوِّضَهُ بالطَّعامِ ثم نسخه بقوله –تعالى–: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [51] [52].

---

[44] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج3، ص51. محمد نصير، آمنة، **إنسانية الإنسان في الإسلام**، (القاهرة: دار الشروق، 1409هـ، 1989م)، ص35. العماري، علي محمد حسن، **من حديث القرآن عن الإنسان**، سلسة دعوة الحق العدد 22، (1409هـ، 1989م)، ص102.

[45] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج4، ص6. ج2، ص322. قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج2، ص1004، 1005.

[46] النّحل، آية: 67.

[47] البقرة، آية: 219.

[48] النّساء، آية: 43.

[49] المائدة، آية: 90.

[50] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع، سابق، ج2، ص165، ص322. ج5، ص195، 196. قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج2، 974، 975.

[51] البقرة، آية: 185.

[52] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج2، ص165. ج4، ص37.

يرى الباحث أنّ نظرة ابن عاشور لخصائص المنهج القرآني متكاملة، ذلك أنّه جعل مراعاة الفطرة الإنسانية أساس المنهج القرآني، وذكر أنه لصيق بها ويتمحور حولها، ثمّ ذكر أنّ خصائص المنهج القرآني الأخرى شديدة الصّلة بالفطرة، بل هي ثمرة مراعاة الفطرة وعنها تنبثق، مثل: العموم والدوام، والتدرُّج وغيرها من الخصائص التي ذكرها، وحتَّى الخصائص التي لم يذكرها. فعلى الرغم من عدم تطرّق ابن عاشور إلى خصائص أخرى مثل: الواقعية والثبات والمرونة، إلا أنّها مقصودة تلقائيا وضمنيا لأنّها ثمرة من ثمرات مراعاة الفطرة، فمجرّد جعل ابن عاشور المنهج القرآني قائما على أساس الفطرة يستلزم جميع تلك الخصائص، ومع ذلك فلو فصّلها وبيّنها لكان أفضل، فبهذه الخصائص كلّها تميّز المنهج القرآني عن غيره من المناهج[53].

فإذا تم بناء الإنسان وتأسيس الحضارة وفق خصائص المنهج القرآني فإنّ الأمة ستكون قوّية وقادرة على ممارسة دورها الوظيفي في الوجود المتمثل في عمارة الأرض وإصلاحها مع قصد الله –تعالى– في جميع تصرفاتها.

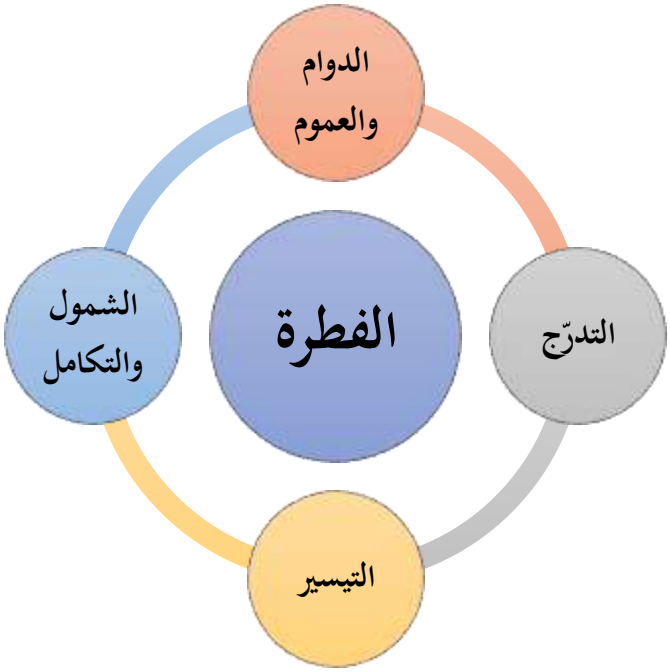

مخطط توضيحي لخصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان والحضارة في تفسير التحرير والتنوير

الخاتمة

توصل الباحث من خلال هذه الدراسة إلى النتائج الآتية:

– أنّ المنهج القرآني في البناء يتسّم بخصائص ومميزات منها يستمد تفرّده ونجاعته، وهي كما يلي:

– أنّ المنهج القرآني في البناء وثيق الصلة والارتباط بالفطرة ومعنى ذلك أنه يساير استعدادات الإنسان وما جُبل عليه، ومن هذه الخاصية الأساسية تنبثق جميع الخصائص الأخرى، والتي تعتبر بمجموعها سرّ تميز وتفوّق المنهج القرآني في البناء، وتتمثل تلك الخصائص في:

(53) انظر: مخطط توضيحي لخصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان والحضارة في تفسير التحرير والتنوير.

– الدوام والعموم: أي إنه صالح للبناء في جميع الأعصار، ولجميع الناس، فيمكن تنزيله في أي بيئة وعلى أي جنس وفي كلّ وقت.

– الشمول والتكامل: حيث يشمل الإنسان بجميع جوانبه ومجالاته، الجماعية والفردية، الروحية والمادية وغيرها، ويجمع بينها في بشكل متناسق ومتناغم، فلا يغلب جانبا على حساب جانب آخر، كاهتمامه بالفرد وإهماله للجماعة، أو كاهتمامه بالشؤون الدينية وإغفاله للشؤون الدنيوية.

– السماحة واليسر: يبني الإنسان ويبلغه إلى مصالحه في سماحة ويسر من دون حرج، كونه يراعي فطرة الإنسان وقدراته وطاقاته فلا يكلفه ما لا يطيق.

– التدرج: يقوم بعملية البناء وفق مراحل وخطوات بأناة وتؤدة، حيث يراعي مراحل البناء وجوانبه فلا يقدم ما حقه التأخير ولا يؤخر ما حقه التقديم.

– على الرغم من عدم تطرّق ابن عاشور إلى خصائص أخرى مثل: الواقعية والثبات والمرونة، إلا أنّها مقصودة تلقائيا وضمنيا لأنّها ثمرة من ثمرات مراعاة الفطرة، فمجرّد تصريحه بأن المنهج القرآني قائم على أساس الفطرة يستلزم جميع تلك الخصائص، ومع ذلك فلو فصّلها وبيّنها لكان أفضل.

التوصيات:

يوصي الباحث في نهاية هذه الدراسة بما يلي:

– القيام بدراسات تتناول بعمق وتفصيل منهج القرآن الكريم في بناء الإنسان والحضارة.

– مراعاة خصائص المنهج القرآني في البناء عند صياغة البرامج التربوية والتكوينية التي توضع لمختلف الفئات والمجالات.

– كتابة دراسات حول خصائص المنهج القرآني في البناء من خلال كتب تفسير أخرى.

– القيام بدراسات مقارنة بين خصائص المنهج القرآني في بناء الإنسان والحضارة وخصائص المناهج الأخرى.

قائمة المراجع

ابن عاشور، محمد الطاهر، (1420هـ، 2000م)، **التحرير والتنوير**. بيروت – لبنان: مؤسسة التاريخ العربي.

ابن عاشور، محمد الطاهر، (1421هـ، 2001م)، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، تحقيق: د. محمد الطاهر الميساوي. الأردن: دار النفائس.

الأشقر، عمر سليمان، (1982)، **خصائص الشريعة الإسلامية**. الكويت: مكتبة الفلاح.

البخاري، محمّد بن إسماعيل، (1407هـ، 1987م)، **صحيح البخاري**، (ط3)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا. اليمامة – بيروت: دار ابن كثير.

العماري، (د.ت)، **من حديث القرآن عن الإنسان**. سلسة دعوة الحق العدد 22.

القرضاوي، يوسف، (1404هـ، 1983م)، **الخصائص العامة للإسلام**. بيروت: مؤسسة الرسالة.

القرضاوي، يوسف، (1422هـ، 2001م)، **مدخل لمعرفة الإسلام**، (ط3). القاهرة: مكتبة وهبة.

قطب، سيّد، (1434هـ،2013م)، **في ظلال القرآن**، (ط40). القاهرة: دار الشّروق.

قطب، سيّد، (1997م)، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**. القاهرة: دار الشّروق.

محمد نصير، آمنة، (1409هـ، 1989م)، **إنسانية الإنسان في الإسلام**، القاهرة: دار الشروق.

النّسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن، (1406هـ، 1986م)، **المجتبى من السنن**، (ط2)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدّة، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية.